الفصل الأول
وجهات النظر العلمانية تحت المجهر

إن تاريخ التطور الديني كما يُقدمه لنا علماء الاجتماع، ومفهومهم عن كيفية تطور الإيمان بالله، يقوم في الأساس على فهمهم للنفسية الاجتماعية. فبعد أن لاحظوا الميول السائدة بين الناس عامة في سلوكهم الاجتماعي، يبدو أنهم قد خرجوا بنتيجة مفادها أن الإنسان بطبعه يُقدس الأشياء التي يخشاها، كما أنه ينتهج نهجا منظما ويسلك سلوكا يتميز بالاحترام تجاه ما يستحسنه أو ما يكون في حاجة إليه. وفهمهم لدوافع "هاتِ وخُذْ" في النظام الاجتماعي يمتد أيضا إلى فهمهم للدين، وذلك بإدماجِ دوافع الخوف والطمع فيه.

فهم يعتقدون أن البشر القديم بسذاجته المعهودة، حينما كان يقف على عتبة الخط الفاصل بين التأنس والإنسان، وهو في حالة من الذهول والاضطراب بسبب كل ما رآه من حوله، لم يستطع أن يُدرك حقيقة طبيعة الأشياء عندما تجرأ على البحث عن إجابات للأسئلة المحيرة التي راودته. وفي بصيص الضوء الخافت عند بداية انبلاج فجر العقل الإنساني، كانت قوى الطبيعة العجيبة قد أثرت عليه بشدة حتى ظن أن الظواهر الطبيعية ليست سوى مظاهر لقوًى عُليا تفوق إدراكه، ولها القدرة على التأثير في حياته.

وبناء على ذلك.. راح ينسب إلى هذه القُوى مقامات الآلهة. وبعد رؤية الآثار المدمرة للعواصف والأعاصير، راح يركع لها في خوف حتى لا تصيبه بشر مرة أخرى. ولكنه أيضا لما رأى نور النهار، وجرّب القوى الخلاقةَ للشمس، راح يُكَوّن انطباعا طيبا عن آلهة كانت من نسج

خيالاته. وبمشاهدة هذه المظاهر من خلال مرآة الظواهر الطبيعية، راح يتصور أن تلك الظواهر الطبيعية إما أن تكون مخيفة مرعبة، أو مفيدة طيبة. وهكذا صارت القوى المظلمة في الطبيعة تبدو عدوانية ومزعجة، مثل الأمواج العاتية والزوابع الثائرة والعواصف الممطرة، التي تأتي في إثْرها بالبروق والرعود والفيضانات المدمرة. ولم تتخلف الحيوانات الكاسرة كثيرا عن هذه الظواهر الطبيعية، إذ بدأت وحوش الغابة، والقطط البرية، والحيّات والعقارب، تأخذ أيضا نصيبها بين مجموعة الآلهة الخيالية ذات القوى الشريرة.

أما مظاهر الطبيعة الطيبة.. مثل النسمة اللطيفة الباردة، والهواء الذي يحمل الندى ويأتي ببهجة الأمطار التي تقيم أود الحياة، فكانت كلها تبدو كأنها تحت سلطان آلهة وديعة طيبة.

وبالنسبة للذكاء البدائي للإنسان، كانت كل هذه الظواهر تبدو كأنها آلهة، أو توابع للآلهة، لها أمزجة وأحوال وخصائص مختلفة. وكل هذه الآلهة التي كانت بنت خيال الإنسان، كانت تستحق الولاء والطاعة حتى لا يحل عليه غضبها، أو يفقد فضلها عليه. أما الروائع الكونية، والشمس البهية، والقمر الجميل، والنجوم المتلألئة في أبراجها السماوية بأسرارها وغموضها الساحر، فقد استطاعت أن تؤثر عليه تأثيرا عميقا، حتى إنها نالت لديه احتراما تعاظم مع مرور الوقت. وهكذا راحت أفكاره الأولية عن الآلهة تتطور، وأخذت الآلهة تُصَنف وتُرتب ترتيبا تصاعديا أو تنازليا.

ورغم أن المرء اليوم يمكن أن ينتقد الإنسان الأول، وينعته بأنه كان غريرا شديد السذاجة، فإن علماء الاجتماع يُصرون على أن سذاجته هذه كانت النتاج الطبيعي لضبابية قدراته الذهنية التي لم تكن قد اكتملت بعد. هذا باختصار هو الرأي الشائع لدى أغلب البارزين من علماء الاجتماع عن نشأة الدين وتطوره.

ويُقال أيضا إن هذه الحالة البدائية من التفكير قد تطورت وآلت إلى فكرة الإله الواحد المنفرد. وهم يُصرّون على أن فكرة وحدانية الإله قد نشأت وتطورت بالتدريج عن فكرة الآلهة المتعددة، ولكن ليس على حساب وجود تلك الآلهة. إذ أن الفكرتين تلازمتا في توازن لم يكن سهلا، تتصارع فيه الآلهة جميعا في معركة بشعة مستمرة من أجل الحصول على السُلطة والتفَوق. وبالتدريج.. وكلما كانت تدق ساعة الزمن الكونية.. أخذت الكثير من الأديان تتشكل وتظهر إلى الوجود، وقد تطورت حول فكرة أو أخرى لعبادة إله واحد أو عدة آلهة. وقليلا ما كان الناس يُدركون في جهالتهم أنهم كانوا يعبدون الظنون والخيالات فقط.. فقد كانوا هم الذين خلقوا الإله، أما هم فلم يخلقهم الإله. وهكذا تطورت عملية التفكير البسيطة الأولية، وتنامت، وتكاثرت، حتى صارت تركيبة متشابكة تثير الكثير من الحيرة والارتباك حول جم غفير من الصور لهذه الآلهة التي كانت فوق مستوى البشر.

وقد ذهبت هذه النظرة الإلحادية للدين خطوة أخرى، حتى إنها نسبت إلى مؤسسي الأديان تهمة الكذب والخداع المتعمد. فقد ادعى أولئك العلماء أن الدين بعد وصوله إلى مرحلة متأخرة، لم يَعُدْ مجموعة من خرافات العوام من الناس، إذ بدأت تنشأ مجموعة منظمة من رجال الدين. وفي هذه المرحلة تم بطريق الخداع إدخال نظرية الوحي كحيلة اخترعتها طبقة الكهنوت، فإن هذه المجموعة المتميزة التي كونت لنفسها هيكلا هرميا، راحت تدّعي لنفسها مقاما خاصا باعتبار أنهم المختارون الذين يتلقون الوحي من السماء، وجعلوا لأنفسهم حق الامتياز في أن يكونوا قناة الاتصال بين الإله أو الآلهة والإنسان. ومع مرور الوقت ظهر الكثير من هؤلاء المدّعين، كل منهم يدّعي أنه على علاقة خاصة مع قوًى فوق الطبيعة.. تعمل على تشكيل وصياغة مصير الإنسان.

هذا هو ما رآه علماء الاجتماع متجليا في ميثولوجيا اليونان، وفي

عقائد وشعائر الكثير من الديانات البدائية. وهكذا تحوّلت محاولة مخلصة من جانب الإنسان البدائي للبحث عن حلول للأسرار المعقدة للطبيعة المحيطة به، إلى محاولة متعمّدة من جانب التنظيم الديني لخداع وغش الناس باسم الإله أو الآلهة.

كذلك فإن الإدراك المتطور للإنسان اتخذ في نفس الوقت طريقا موازيا، فحسب رأي علماء الاجتماع.. كلما تقدم فهم الإنسان للبيئة المادية المحيطة به، صار تعامله مع صور الإله يأخذ شكلا متطورا ومنضبطا. فالجمادات، مثل التماثيل والأصنام، التي كانت تُعتبر آلهة من قبل، صارت بعد ذلك تُعتبر قنوات تقود الإنسان إلى الآلهة التي تسكن في السماوات. وبذلك تحولت بالتدريج لتكون وسائل تُعبر من خلالها الآلهة التي في السماوات عن أمزجتها المختلفة مِن رضىً أو غضب. وأخذت فكرة "الآلهة" تختفي شيئا فشيئا ككيان مادي وتتحول إلى فكرًة تجريدية. ونفس العملية تطورت أكثر إلى نظام أشد تعقيدا من هرمية إلهية نال فيه كل إله مكانا معينا بالنسبة للآخرين، وصار له دور يؤديه في الكون. وكان هذا التصنيف والترتيب للآلهة هو الذي أدى في النهاية إلى خلق إله واحد متميز، له مكانة أعلى فوق الجميع. هذا هو التصور الذي رآه علماء الاجتماع للكيفية التي خلق العقل الإنساني بها الإله. وبمعنى آخر.. لو أُسندت إليهم مهمة صناعة إله، لكانت هذه هي الطريقة التي اتبعوها لتحقيق ذلك، مع إعطائهم بالطبع الزمن الكافي لذلك.

لقد بنوا نظريتهم هذه على افتراض عدم وجود إله في الأصل، وبالتالي فإن جميع هذه الآراء لا تخرج عن كونها تخمينات لا تقوم على أية بحوث حقيقية، وإنما هي تعبير طبيعي لفكر الشخص الملحد. وحكمهم المسبق هذا هو الذي يدّعون أنه استقصاء عقلاني محايد. ولكنهم لسبب أو لآخر لم يلحظوا الخلل والتناقضات في الأسلوب الذي استخدموه لتنظير وربط ما تصوروا أنه حقائق التاريخ. فإن تاريخ الفكر الإنساني في

المراحل الأولى من التطور الإنساني لم يُدَون، وهو غامض، وفي الواقع.. لا وجود له. فليس من حقنا أن نقول عن شيء إنه 'تاريخ' إلا ما نجد عليه دليلا في مخلفات أثرية من الماضي، تدل على أسلوب الحياة في ذلك العصر. أما هذا التاريخ الذي يتحدث عنه علماء الاجتماع، فقد بدأ منذ ما يقرب من مائتي ألف عام مضت أو تزيد، بينما بداية الوجود الفعلي للأديان وتطورها لم يزد عن بضع ألوف من السنين. وبالتالي فإن كل ما أمكنهم أن يبنوا عليه نظرياتهم لم يكن سوى مجرد تخمينات وافتراضات. ولم تكن محاولاتهم للنفاذ إلى عقول القدماء في العهود السحيقة سوى ضرب من الخيال، يقفز على جناحين من الوهم. وكان اتجاه هذه القفزة محددا من قبل ليكون في الاتجاه الإلحادي. فجميع استنتاجاتهم تفتقر إلى دليل يؤيدها من الطبيعة البشرية – الوسيلة الوحيدة التي يمكن الاعتماد عليها في تقييم العملية الفكرية.

هل نحن بالفعل نعبد ما نخافه ونخشاه؟ وهل يحملنا الطمع على أن نخر دائما ساجدين عابدين أمام الأشياء التي نطمع فيها؟ إن مثل هذا الخوف والطمع لا يصلح أن يبني أشد الأديان بدائية، فإن الخوف يجعل المرء يجري ويفر هاربا من كل ما يسبب له الخوف والفزع. ويستطيع الإنسان بالطبع أن يتصور أحوال أولئك الذين يقعون فرسى للتعذيب الشديد ولا يستطيعون الهروب أو الفرار منه، فنجد أنهم يلتمسون الرحمة ممن يقومون بتعذيبهم، ولكنهم لا يعبدونهم. وإذا أتيحت النجاة لضحايا التعذيب هؤلاء، فإنهم سوف يسبّون من كانوا يُعذبونهم بأقذع الألفاظ، ويصفونهم بأبشع الكلمات. وأما فكرة العبادة فلن يمر طيفها على خيالهم. ولعلنا لذلك لم نقرأ أبدا عن جاسوس أمريكي دفعته مشاعر الفزع بعد أن وقع في أيدي الـــ ك.ج.ب. (K.G.B) فراح يعبد أولئك الذين يتولون تعذيبه. ولا يخفى بالطبع أن الخوف من الله تعالى المذكور في الأديان السماوية، لا علاقة له بفكرة الخوف من الوحوش والأشياء المفزعة الأخرى. فإن

التهديد الإلهي بالعقاب لا يهدف إلا لردع الإنسان من ارتكاب الجرائم ضد ما يسيء إلى نفسه أو إلى غيره، ولمنع الناس من الإضرار بالآخرين. ولكن من المستحيل في مجتمع الإنسان البدائي أن يتولد مثل هذا التهديد بالعقاب من الخوف من الحيوانات وكواسر الغابة أو من العواصف الرعدية. ولم يحدث أبدا أن الخوف من الحيوانات المتوحشة، أو أن التهديد بالعقاب من جانب قوى الطبيعة الثائرة، قد منع يد الإنسان البدائي من ارتكاب العدوان. إن بعض الناس قد يخشون رجال الشرطة أو رجال المرور أو وكلاء النيابة، بل يكرهونهم أيضا، ولكنهم لا يعبدونهم. وكذلك الحال في العهود القديمة.. إن الخوف من الأسد المفترس كان يدفع الإنسان البدائي إلى الفرار والهروب لكي ينجو بحياته، ولكن لم يجعله يخر ساجدا أمامه، معظما إياه، وممجدا قوته، وطالبا منه الرحمة. كذلك كانت صواعق البرق، أو سيول الأمطار، أو حرارة الشمس المحرقة في الصيف، تدفع الإنسان لكي يبحث عن مأوى، أو يتخذ من الوسائل ما يقيه شر تلك العوامل الطبيعية. هل يصدق فعلا أحد علماء الاجتماع أنه حين تهب عاصفة هوجاء، تنفتح خلالها عيون السماء بأمطار رعدية غزيرة، فإن الإنسان البدائي، بدلا من أن يتخذ مأوى يقيه، كان يقفز خارجا من كهفه ويخر ساجدا أمام فيضان من مياه الأمطار وهو يُسَبّح بحمد الرياح المدمرة؟ أما ما ذُكر عن عبادة النجوم أو عبادة الشمس، فليس له علاقة بأية حال من الأحوال بالتطور التدريجي لفكرة العبادة بسبب الخوف أو الطمع. ولا يوجد أي أثر يدل على وجود طريق للتطور، سار فيها الإنسان منتقلا تدريجيا من عبادة الأشياء الأرضية الصغيرة، إلى عبادة الكائنات الخيالية الأشد قوة أو الأكثر علوا.

إن علماء الاجتماع يتحدثون عن التطور، بغير اتباع أية أساليب علمية لإثبات افتراضاتهم. ولكن حينما يتحدث العلماء التجريبيون عن التطور، فإنهم يتتبعون أثرا طويلا يمتد إلى ماض سحيق يبلغ المليون من السنين، وهم يعبرون طورا بعد طور في طريق تطور الحياة الطويل. فهل توجد ذرة من دليل أو برهان على حدوث تطور مماثل فيما يتعلق بتصور الإله؟ أين هي تلك المجتمعات التي كانت تعتقد بالخرافات وتعبد الأصنام، ثم تطورت إلى أديان تؤمن بوحدانية الله؟ ليس لها أي وجود بتاتا.

ومع ذلك فإن علماء الاجتماع يُصرون على أن القدرة البدائية للإدراك لدى الإنسان هي المسؤولة عن خلق الإله. وكما ذُكر من قبل.. إنهم يتمسكون، وبعناد شرس، بأن الخوف من المجهول قد لعب دورا في بناء وخلق تصورات الإله؛ فالظلام قد أثّر بخداعه، والأخطار المترصدة تحت غطاء الجهل بدأت تستحوذ على الاحترام والتبجيل. وبدأ القدماء يعبدون الحيّات والعقارب والنمور وسباع الجبال وأسود الغاب. وراحت الزلازل تهز الأرض، والصواعق تحرق الأشجار، والعواصف المدمرة تهب بشراسة وبغير رحمة، فبدأت فكرة الإله تنشأ في ذهن الإنسان. فقد نشأت من عبادة الظواهر الطبيعية، وتطورت إلى عبادة الأشياء المادية التي كانت تنشر الفزع في قلوب البشر. ثم تطورت من عبادة الجمادات إلى عبادة الحيوانات، ومن عبادة الحيات والعقارب إلى عبادة القطط ووحوش الغاب، وحتى القرودُ أيضا تحولت إلى آلهة. فإن البشر لم يستطيعوا أن يصلوا إلى علاء البرق، ولم يستطيعوا فهم طبيعة القوى التي خلقت تلك البروق، ولكنهم كانوا في فزع من تلك القوى كلها بنفس المقدار.

ولا بد أنهم تصوروا أن كل ظاهرة مفزعة هي تعبير عن غضب إله من آلهة الفزع، جالسٍ خلف ستار من السحب. وهكذا بدأت عقولهم، على بساطتها، تنسج غزل الخرافات. فقد اخترعوا تعاليم وقواعد للسلوك لكي يُرضوا بعض الآلهة المستبدة، أو على الأقل لكي ينجوا من غضبها.

وبُنيت المعابد، وقُدّمت القرابين، وبدأت تُصاغ الأفكار عما هو صحيح وما هو خطأ، ثم ظهرت مجموعة من الشعائر، وأخيرا تم تدوين الكتب المقدسة. فيا له من خيال يستحق الإشادة ذلك الذي جادت به تلك العقول البدائية والأفهام الساذجة! أو لعله من الأنسب تقديم الإشادة لعقول علماء الاجتماع الذين بنوا تلك القصور الدينية في الهواء، نيابة عن تلك العقول البدائية والأفهام الساذجة.

لقد فشل هؤلاء العلماء في أن يلحظوا الفارق بين العقائد الوثنية والأديان السماوية في العالم. كما أنهم فشلوا في ملاحظة أن الكهنة والمذاهب الأسطورية القديمة، لم تدّع أبدا أنها تلقت من الله نظاما جديدا للحياة عن طريق الوحي. كذلك لم يسأل أحد هؤلاء عن دعواهم بالوساطة بين الناس والآلهة، لأن سُلطتهم كانت تنتقل إليهم ممن سبقوهم وكان المجتمع يتقبلها، فلم يطالبهم أحد أن يُقدموا دليلا سماويا على ادعاءاتهم، بل كانت لهم الحرية في تلفيق الخدع والحيل لتأييد دعاواهم. وهكذا كان يتم خداع السذج لتصديق أن لهؤلاء صلة بالآلهة، بينما لم تكن تلك الصلة سوى خدعة. وهكذا كانت الدعاوي الكاذبة تؤيد الآلهة الباطلة.

ويحسن أن نتتبع النقاط التالية عن طبقة الكهنة والعرافين المذكورة فيما سبق، التي تتباين وتختلف تماما مع من يختارهم الله لتأسيس الديانات العظمى في العالم. ويمكن تلخيص السمات الخاصة بهم فيما يلي:

١) إن الكهنة الذين يعبدون الأصنام كانوا يُعرفون من خلال معابد سبق إنشاؤها.

٢) إنهم لا يُقدمون عقائد دينية جديدة تكون مثار اعتراض لما تعَوّد عليه عامة الناس، ولا تطعن في الأفكار الدينية المنتشرة بينهم. ولم يكن هؤلاء الكهنة يعملون على تغيير قيم المجتمع ولا سلوكه، بل كانوا دائما يؤيدون العقائد والممارسات في النظام القديم القائم، ولم يعارضوا أبدا الأساطير

والخرافات الشائعة مسبقا والخزعبيلات التي تنتشر بين العامة.
٣) في أغلب الأحيان يكون هؤلاء الكهنة جزءا مقبولا من النظام السياسي السائد، ولا يعترضون على الأفكار العقائدية لدى الحكام. ومع ذلك فقد يجد المرء أحيانا بعض حالات التمرد الاستثنائية التي قادها الكهان ضد ملوك زمانهم. وفي تلك الحالات.. غالبا ما كان السبب هو الرغبة في الانتقام نتيجة للتدخل الزائد في شؤونهم الخاصة من جانب الملوك. وقد يكون الدافع في بعض الأحيان هو الرغبة في اكتساب المزيد من السُلطة السياسية. ومع ذلك فتلك الوقائع لم تكن مجرد استثناء. أما القاعدة فهي أن الكهنة الفاسدين الذين يعبدون الأصنام كانوا في الغالب يؤيدون الخرافات السائدة، أو الفلسفات المتأصلة في التراث المنتشر بين الناس.

أما حالات الأنبياء الذين تختارهم السماء، فكانت تختلف عن حالة أولئك الكهنة أشد الاختلاف. فإن هؤلاء الأنبياء الذين كانوا بداية لوجود الأديان العظيمة في العالم، مثل اليهودية، والمسيحية، والإسلام، والزرادشتية، وغيرها، كانوا جميعا معظمين لوحدانية الله تعالى. وعند دراسة أحوال حياة موسى وعيسى ومحمد عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام، وحياة غيرهم من الأنبياء الذين أعلنوا أنهم جاءوا من عند الله تعالى، نجد دائما أنه لم يكن من بينهم أحد يمثل النظام الديني الذي ساد وترسخ في زمنه، وصار شائعا بين الناس. فكان صوتهم هو الصوت الوحيد الذي ارتفع بالثورة على القديم الفاسد. وكانوا دائما يبنون دعواهم على أساس من الوحي، ويقدمون للناس فلسفة جديدة تستلزم نهجا جديدا تماما في الحياة. وكانوا يدْعون إلى قيم جديدة، تتناقض مع العادات السائدة والتقاليد المتبعة في المجتمع. لقد كانوا دعاة إلى نظام جديد، وكانت لديهم الشجاعة والجرأة على تحدي السُلطات الدينية في زمنهم. لقد ظهروا في الوقت الذي انقسمت فيه الأديان السائدة في

مجتمعاتهم إلى فرق وشيع ومذاهب، تتقاتل جميعها فيما بينها للحصول على اليد العليا بين الجهلة من العوام. في ذلك العصر الذي يظهر فيه نبي مبعوث من لدن الله تعالى.. يكون هو الزمن الذي تتحد فيه تلك الفرق والشيع والمذاهب في العداء للنبي المبعوث، ويتناسون جميع اختلافاتهم لكي يُوَحدوا قواهم وجهودهم، حتى يقيموا سدا منيعا ومعارضة جبارة ضد النظام الجديد الذي يأتي به. إنهم ينظمون فيما بينهم جبهة للمعارضة تقف في وجهه، مستخدمين في ذلك وسائل القوة والعدوان. أما المبعوث السماوي فلا يجد له من معين بين البشر، وليس له من يؤيده ويمده بالقوة بين الجموع الشعبية، ولا من أية قوة فعالة في المجتمع، ولا يمد له يد المعونة أي حزب سياسي أو قوى حاكمة، وإنما يبدو أنه وحيد، مخذول ومنبوذ.

هؤلاء هم الرجال الذين يقيمهم الله تعالى ليواجهوا المجتمعات الوثنية، التي دائما تنبثق من تكاثر الخرافات وانتشارها، بينما يركز المبعوثون من الله على الإيمان بوحدانية الله تعالى، ويبذلون قصارى جهدهم لقطع دابر الوثنية في كل شكل من أشكالها، وفي كل هيئة تتخفى فيها. وأما الوحدة الزائفة التي تبدو بين جميع معارضيهم ومخالفيهم، فإنها تكون في الواقع وحدة ظاهرية ضد الأنبياء، بينما تظل جمرات الخلاف والنـــزاع مشتعلة بينهم كما كانت الحال دائما. فإن كان دعاة وحدانية الله مجرد أدعياء كذبة، لكانت مهمتهم مستحيلة التحقيق تحت هذه الظروف، إذ لا يستطيع الكذاب أن يظل في تصميمه وعزيمته على الوصول إلى أهدافه وغاياته التي تبدو بوضوح أنها بعيدة المنال. إن إيمانهم المتأصل في قلوبهم لا بد أن يكون قائما ومؤسسا على الحقيقة الإلهية، وإلا لكان من المحتم أن يهلكوا ويختفوا من الوجود، ولقُضي عليهم قضاء مبرما. ولو لم يكن هناك إله لاعتبر المجتمع مثل هؤلاء الرجال مجرد مجانين وفي عقولهم خبل، وليس هناك من احتمال ثالث. وإن لم يكن بهم مس من الجنون..فكيف يتمسكون بأفكارهم وعقائدهم بهذا الإصرار العجيب، حتى إنهم يضحّون

بكل ما لديهم من أجل غرض لا وجود له، ويقدمون كل شيء من أجل هدف لا طائل من ورائه. ولكن من المستحيل اعتبارهم مجرّد مجانين فقدوا عقولهم، فالمجانين لا يثبتون على فكرة بعينها، بل يظلون في التحَول من موقف إلى آخر في هذيانهم. أما الأنبياء.. فالمجتمع يتعامل معهم بعنف وقسوة، حتى لكأن الأرض قد انفجرت من تحت أقدامهم في صورة بركان من الغضب والسخط، ولا يلقون تأييدا من أحد من البشر.. لا من الأغنياء ولا من الفقراء، ولم يحدث أن أتى أحد لنجدتهم.. سواء كان من ذوي القوة والنفوذ أو كان من الضعفاء والمساكين.. ليقف في مواجهة عواصف العداء والمعارضة الشاملة التي تعم المجتمع. غير أن عظمة الرسالة التي يأتون بها، وسمو الأخلاق التي يتصفون بها، ونبل المسلك الذي يسلكونه، وإيمانهم الذي لا يهتز ولا يتزعزع بحتمية تحقيق انتصارهم النهائي.. في الوقت الذي يبدون فيه في عجز كامل وبؤس شامل، لتشهد كلها بصدقهم وأصالتهم.

إنهم قوم لا يعرفون حدودا لتقديم التضحيات، ولا يصيبهم أثر من طمع ولا جشع. وكل ما يملكون أو يكون تحت تصرفهم يقدمونه بنفس راضية لتحقيق أغراضهم النبيلة. ولا يكونون وحدهم على هذا المنهج، بل أيضا أولئك الذين ينضمون إليهم ويتبعونهم باطراد، متخطين في ذلك جميع العقبات، سائرين على نفس درب التضحيات، وملتزمين بنهج البذل والعطاء. ولا تستطيع أصابع الاتهام أن تثبط من همة هؤلاء.

إن نظرية إسناد خلق آلهة خيالية إلى جهل الإنسان قد يكون لها بعض الصحة في بعض المراحل من تاريخ البشرية التي كان يعاني فيها الإنسان من الجهل وعدم النضج، ولكن لا يمكن إنكار دور الكهنة كلية في استغلال جهل العوام من الناس؛ ولكن الادعاء بأن هذه العملية هي التي ولدت تيارا متصلا من الأفكار التي أدت في النهاية إلى الإيمان بإله واحد هو ما ننفيه ونستنكره بشدة، فإن الحقائق التاريخية لا تؤيد موضوع نشوء

فكرة التوحيد من نمو وتراكم الخرافات الوثنية. فهذه ليست سوى خيالات وأوهام علماء الاجتماع.

إن التاريخ لا يقدم أي دليل يؤيد نظرية التحول التدريجي المطرد من تعدد الآلهة إلى التوحيد. فليست هناك مراحل انتقالية مشهودة تحولت فيها المجتمعات من عبادة آلهة متعددة إلى عبادة إله واحد. بل على العكس.. هناك تحول مفاجئ غير متوقع لظهور رجل واحد عظيم، يكون فاتحة لتحريك سلسلة من الأحداث والوقائع التي تثير جيشانا ومحنا جساما، تتطلب تقديم أعظم التضحيات من جميع أولئك الذين يختارون أن يتبعوا ذلك الإنسان.

ويرفض القرآن المجيد هذا الافتراض النظري لعلماء الاجتماع، ويعلن بشكل قاطع أن العكس هو الصحيح، وهو أن جميع الأديان العظمى في العالم قد بدأت رحلتها بالإيمان بوحدانية الله. وأما فكرة التطور التدريجي للتوحيد، فلا يمكن إثبات صحتها.. لا من خلال أحداث التاريخ، ولا من خلال فعل الطبيعة النفسية للإنسان.

إن أخلاق الأنبياء والشمائل التي يتحلون بها كانت معروفة لمجتمعاتهم كالكتاب المفتوح، الأمر الذي يُبطل جميع الاتهامات عن وجود نوايا خفية وأغراض سرية. وليس في حياتهم قبل إعلان دعوى النبوة أية شائبة يمكن أن تكون سببا لتبرير اتهامهم بأنهم قد خططوا ودبروا لادعاء النبوة في مرحلة لاحقة. وليس هناك من دليل واحد على مثل هذا الإعداد يمكن العثور عليه في حياة هؤلاء المدافعين العظماء عن وحدانية الله تعالى.. من أمثال إبراهيم وموسى ومحمد.. عليهم جميعا أفضل الصلاة والتسليم.

ففي زمن إبراهيم عليه السلام.. كان الإيمان العظيم بالتوحيد الذي وطد نوح عليه السلام أركانه قد فسد وتحلل في زمن الأجيال البعيدة من ذريته، فتحول إلى أساطير لآلهة متعددة. ومرة أخرى قاد إبراهيم عليه السلام حملة عظيمة من أجل إعادة التوحيد. وقد نجحت الحملة في نهاية الأمر وارتفع

مشعل التوحيد عاليا بواسطة ذريته من الآخرين والذين اتبعوه لأجيال عديدة من بعده.

غير أن الظاهرة القديمة والمشؤومة للنّزوع إلى التحلل والفساد ضربت بأطنابها مرة أخرى بنفس النتائج الكارثية. وخلال بضع مئات من السنين بعد إبراهيم عليه السلام، عاد بيت إسرائيل إلى مفسدة عبادة الأصنام. واستمرت هذه الحال إلى زمن موسى عليه السلام. ورغم أن موسى كان من أبطال التوحيد بين الأنبياء، إلا أن عبادة الأصنام ظلت تتسلل إلى دين أتباعه وتفسده خلال القرون التالية. وهذا يدل دلالة واضحة كرابعة النهار على أن البعد عن التوحيد يؤدي إلى السقوط في الحضيض. وإذا تُرك الإنسان وشأنه فإنه ينْزلق من علاء قمة التوحيد ليهبط إلى أرض الشرك، الأرض التي لا تنبت إلا الخرافات وتعدد الآلهة.

والمثال الآخر الذي يذكره القرآن المجيد هو عن بيت الله الحرام في مكة المشرفة، والذي أقام قواعده إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وكان هو أول بيت وُضع لعبادة الله تعالى وحده. ولكن مما يؤسف له أنه لم يمر زمان طويل حتى بدأت الأصنام تجد سبيلها إلى داخل هذا الحرم القدسي العظيم الذي يُسمى بيت الله. وفيما عدا هذا الاسم، فإن كل شيء فيه قد تغير. فقد شغله ما لا يقل عن ثلاثمائة وستين صنما يمثل كل منها يوما من أيام السنة القمرية، حتى ملأت الأصنام جميع جنبات البيت العتيق، وكان هناك مكان يتسع لاحتواء جميع هذه الأصنام، ولكن لم يعد فيه مكان لله تعالى.

فهل هذه هي عملية الارتقاء المتواصلة التي يتكلم عنها علماء الاجتماع كثيرا؟ هل هذا هو الأسلوب الذي يعتقدون أنه تطور فنتجت عنه فكرة الإله الواحد الأعظم؟ هل هذه هي الكيفية التي تمخضت عنها فكرة الإله بعد أن خلقها الإنسان خلال تطوره من حالته العقلية البدائية إلى أخرى أكثر تقدما؟ كلا بكل يقين! إن تاريخ الأديان كلها بالإجماع

يرفض هذا الاستنتاج الاعتباطي لعلماء الاجتماع، ويكشف هذا التاريخ بوضوح أن الإيمان بوحدانية الله كان دائما يتنَزل من لدنه ﷻ، و لم يحدث أبدا أن تصاعد إليه من خلال ظاهرة التطور التدريجي لعبادة الأصنام.

وإن كان بالفعل قد حدث انتقال مرحلي من عبادة آلهة متعددة إلى عبادة إله واحد، فلا بد أن يكون تاريخ الأديان شاهدا على ذلك، ولكن ليس هناك من أثر لذلك في التاريخ الموثوق به لعالم الأديان. فالمجتمعات المَوَحِّدة كانت دائما تنحدر وتنحط بالتدريج عبر السنين الطوال إلى مجتمعات مشركة. و لم يحدث العكس أبدا.

إنه من الصعب العسير أن يتمكن الصلحاء من الناس توريث الأجيال التالية هذا الصلاح لفترة طويلة. ومن النادر أن يظل صلاح الآباء مؤثرا ومتأصلا في الأجيال اللاحقة. صحيح أن الأغلبية العظمى من الجيل الأول الذي عاصر عهد انبثاق النور على يد النبي الذي بُعث فيه.. لا يعود أبدا إلى الحال السابقة من ظلام وضلال، ولكن الإيمان يضعف بالتدريج مع مرور العديد من الأجيال. ولا يحدث هذا التدهور بين عشية وضحاها، بل هو تطور بطيء يستمر لزمن طويل، يبدأ بعد أن يغادر النبي المبعوث هذه الدار، وفي النهاية.. يضيع الإيمان القوي بوحدانية الله تعالى. وكلما يتضاءل الإيمان ويبدأ في الذبول.. تبدأ الخرافات في غزو العقول وتستولي على أفكار الناس، ويتمزق الإيمان القوي بإله واحد قدير إلى صورة مبعثرة مشتتة للألوهية. ومن معبد إلى آخر.. يبدأ كهنة الدين الفاسدون في افتراء الأقاويل وهم يشعرون بكامل الحرية في خداع العامة من الناس.

إن الأديان جميعها.. بغير استثناء.. تؤكد على أهمية الدور الذي تقوم به فضائل الأخلاق في العلاقات والشؤون الإنسانية.. وقد تختلف هذه الأديان بعضها عن بعض في بعض السمات الأخرى، ولكنها لا تختلف في تركيزها على أهمية المبادئ الأخلاقية، فهذه ظاهرة عامة موجودة في كل مكان وفي كل زمان. واتهام الدين بمحاباة الأغنياء أو أصحاب القوة

والسلطان.. قد يكون له بعض الحق في عهود الاضمحلال والانحطاط فقط، ولكن مثل هذه الاتهامات لا تخطر على فكر أحد في ضوء تاريخ بداية الدين عند بعثة نبي. والأخلاق التي يقوم الأنبياء بترسيخها في مجتمعاتهم.. تعمل دائما في جانب العدالة والإنصاف، وبذلك فهم يخوضون معركة نبيلة، ويقودون ثورة بناءة ضد اللاأخلاقيات واستغلال الضعفاء والمحرومين، وهذه المبادئ تشد دائما من عزم المظلومين ضد الظالمين، وتمدّ الضعفاء بالقوة ضد المستغلين.

أين حدث- على وجه البسيطة- أن قامت الأخلاقيات الدينية بتأييد الظالمين ضد المظلومين؟ إننا إذا بحثنا في التاريخ منذ فجر الأديان فلن نجد ولو مثالا واحدا على ذلك، بل كانت المبادئ الأخلاقية تُشَرع دائما وأبدا في جانب الفقراء والضعفاء. والضمان الحقيقي لتطبيق هذه الشرائع يكمن في الإيمان بوجود الله العليم بكل شيء. والشخص المؤمن بهذا الإله.. يعلم تماما أنه من المستحيل عليه أن يهرب خارج نطاق علمه تعالى، أو يتجنب المشيئة الإلهية، فهو لا يستطيع أن يخفي عن الله تعالى شيئا من عمله، سواء قام به في الماضي أو يريد القيام به في المستقبل. ولا يوجد أي تشريع بشري يمكن أن يكون له هذا التميز فيما يختص بتطبيقه. فالتشريع البشري يفشل دوما ويحتاج إلى تعديل، وذلك لأن المجرم الذي ينتهك حرمة القانون يفتقد الإحساس بأنه مراقَب دائما من جانب السُلطة التشريعية. والتشريع وحده.. مهما كان مؤيدا بتهديد العقوبة.. لا يستطيع أن يمنع يد المجرم من اقتراف الجرم. فإن أثر القوانين التشريعية لا يصل إلى الأرض التي تنمو فيها جذور الجريمة.. وهي التربة الخفية للنوايا السرية. ويظل المجرم دائما يحدوه الأمل بأنه سوف يتمكن من إخفاء جريمته عن عيون القانون.. كما استطاع إخفاء أفكاره ونواياه لارتكابها. ومما يُشجع أيضا على ارتكاب الجريمة هو أن المجرم يتحرى الحماية تحت مظلة الكذب. فميول الإنسان ونزوعه الطائش لارتكاب الجرم يتناسب

طرديًا مع أمله في أن يفلت من انكشاف أمره. ومن هنا لا تنجح القوانين والتشريعات وحدها في إزالة الفساد الاجتماعي، لأنها تفتقد المطلب الحيوي في الوصول إلى غور أعماق ظلام النفس الإنسانية.. حيث تتولد وتتغذى أفكار ارتكاب الجريمة. وتُرتكب معظم المفاسد والشرور خلف ساتر من دخان وهمي يتصور المجرم أن أحدا لن يستطيع أن يراه من خلاله، وعلى ذلك فلن تقع عليه أية مسؤولية. ومهما تقدمت أساليب كشف الجريمة.. فإنها لا تستطيع أن تهز ثقة المجرم في أمله المحسوب في تجنب اكتشاف جريمته، لأن التخطيط والتدبير يتم بأمان بعيدا عن أعين القانون.. في المكامن السرية داخل أعطاف قلبه.

إن الإيمان الراسخ بوجود الله تعالى، واليقين بالمساءلة والحساب، هو وحده الذي يمكن أن يحبط ويهزم جميع الجرائم وهي في مستهل أمرها. فهذا.. وهذا فقط.. هو الغرض من التشريع الأخلاقي في الدين. فالأخلاق ضرورة جوهرية وحيوية لبقاء الدين نفسه. وحين يتدهور المستوى الأخلاقي يكون الدين هو أول الضحايا. فالكذب والفسوق يُتلف ويُفسد حتى أكثر الصروح قوة من القوانين والدساتير. كذلك فإن الصروح الروحية التي يقيمها الدين تَفْسُد هي الأخرى وتتحول إلى رماد نتيجة للعفن الذي يسببه فساد الأخلاق. وكما يأكل السوس البيوت الخشبية فتنهار.. كذلك فإن فساد الأخلاق يهدم القصور العملاقة التي شيدتها الأخلاق في الأديان الكبرى ويسويها تماما بالأرض.

هذا هو المفتاح الذي يمكننا من فهم أسباب الاضمحلال والتدهور في جميع مستويات العقائد والممارسات الدينية. إن الإيمان بوحدانية الله تصيبه الشروخ التي تتحول إلى انشقاقات وفُرقة بسبب تدني المستوى الأخلاقي. ثم يبدأ الشرك والتعددية الإلهية في الحلول محل الوحدانية، وتشغل الأصنام بيوت الله لتجعل منها معابدَ للأصنام. ويستطيع المرء دائما أن يرى سوس الكذب والخداع والخيانة وفقدان الشرف والأمانة، يقوم بعمله في أعماق

هذه الظاهرة المدمرة. وحين يصل فقدان الشرف والأمانة إلى مستوى القيادة، فإنه يتحول إلى سم قاتل، ولكن ليس من سم أشد وأفظع من سم الخداع والكذب وفقدان الشرف والأمانة حين يصيب القيادة الدينية، فهي تدمر سلام وأمن خلق الله باسم الله. وعندها يتوقف الله تعالى عن القيام بأي دور في شؤون الناس، ويُنَصّب هؤلاء القادة من أنفسهم آلهة، ويعطون لأنفسهم حق الجلوس على عرش الله.

لذلك.. من مقتضيات الحكمة أن يكون الحكمُ على الأديان في مرحلة مولدها وفي مهدها وليس في مراحلها المتأخرة.. حين تتحول الأديان بسبب عبث أيدي الإنسان بها إلى مجرد أنقاض.. هي كل ما يتبقى من بداياتها النبيلة. وكما تكون هذه البدايات نبيلة فإنها تكون متواضعة أيضا، ويكون سلوك المجتمع تجاهها عند تأسيسها بنقائها وطهارتها الأصيلة والأصلية سلوكا يتسم بالعنف الشديد والرفض القاطع. ويقدم الأنبياء أعظم وأنبل الأمثلة الحية التي تُجسد تعاليمهم. وهؤلاء هم الذين ترفضهم المجتمعات وتسخر منهم وتجعلهم هدفا لعداوة لا تقبل المهادنة، وعدوان لا يعرف الرحمة.

وما يصيب الأنبياء على يد أقوامهم يصيب أيضا المؤمنين الأولين الذين لا يوجد لهم مثيل في المراحل المتأخرة سواء في نبلهم وإخلاصهم أو في الرغبة والاستعداد لبذل التضحيات من أجل الحق. ومن سخرية الأقدار أن رجالا كهؤلاء الأنبياء وصحابتهم يظلون مرفوضين ومضطهدين من مجتمعاتهم طوال حياتهم، حتى إذا ما غادروا مسرح الحياة في هذه الدنيا، يتحول الرفض إلى قبول، وتتحول السخرية إلى احترام، ثم يتطور الأمر إلى مبالغة في التقديس يتعدى مقامهم ويزيد عن مكانتهم التي كانوا يشغلونها في حياتهم، فترفعهم أقوامهم إلى مصاف الآلهة، وتتحول قبورهم إلى مزارات ومعابد تعبد من دون الله. وهؤلاء الذين يرثون الدين بغير أن يشربوا من كأس التضحيات وبذل الغالي والرخيص في سبيله..

هم أولئك الذين ينمو في مجتمعاتهم هذا التناقض الغريب. وبذلك فإنهم يُتلفون القيم النبيلة في الدين، ولكن بأسلوب غير مكشوف، إذ يعملون تحت السطح مثل ديدان الأرض.

إن وحدانية الله تعالى تقوم دائما على مستويين، فعلى المستوى الأول يقف المؤمنون بالتوحيد في رابطة قوية بالله لا تنفصم، كما أنهم يكونون فيما بينهم أيضا في رابطة قوية لا تنفطر. وعلى المستوى الثاني يظل التوحيد قائما وموجودا بين الخالق وخلقه.

وفي التاريخ الثابت المعروف للأنبياء لا نجد أبدا أن نبيا قد رفض أو أهان نبيا من الأنبياء الذين سبقوه. ونفس هذا الموقف الوحدوي يشمل أنبياء المستقبل أيضا. نعم.. هناك بالطبع التحذيرات التي تحذر من الأدعياء الكذبة الذين يمكن التعرف عليهم بسهولة بسبب فساد أعمالهم وسوء أخلاقهم. ولكن مجيء الأنبياء الحقيقيين يُذْكر دائما بكل محبة واحترام. وينطبق هذا أيضا على جميع المتمسكين بالتوحيد في جميع الأزمان، إذ يجمع التوحيد بينهم في وحدة ورابطة أخوية قوية. وأما كهنة الدين الذين غلبهم الفساد.. هم وأتباعهم.. فإنهم يفتقدون فيما بينهم هذه السمة المميزة. وهم ينشرون الفُرقة بينما يقرعون طبول التوحيد. إن حب وحدانية الله يربط بين الأنبياء جميعا برباط قوي.. حتى إن الإساءة إلى أحدهم تعتبر إساءة إليهم جميعا. وتظل هذه الرابطة بمثابة رمز للتوحيد بين الله تعالى ومن يختارهم من عباده من جانب، وبين عباده المختارين من جانب آخر.

وتتجلى وحدانية الله تعالى أيضا كرابطة عامة تربط بينه وبين كل ما هو موجود. فإن وحدانية الخالق ﷻ تربط بينه وبين مخلوقاته وتُوَحد بينهم بطرق قد تبدو واضحة وقد تكون خفية. ولكن فيما يتعلق بهاتين الدعامتين للتوحيد.. نجد للأسف أنه بمرور الوقت وانقضاء الزمن.. يبدأ التحلل والفساد بضرب أطنابه، مما يؤدي في نهاية الأمر لإعداد التربة التي

تنمو فيها شجرة الفساد.

وتظهر أولى علامات التدهور حين يبدأ كهنة الدين خلال الأزمنة المتأخرة في رفع مقام أنبيائهم إلى الحد الذي ينتهك حرمة وحدانية الله تعالى، وينسبون إلى هؤلاء الأنبياء بعض الصفات الإلهية التنْزيهية الخاصة بالله تعالى، التي لم يدّع بها هؤلاء الأنبياء إطلاقا. وهكذا يتحول الحب المبالغ فيه للأنبياء السابقين إلى دين جديد لهذا المجتمع المتردي دينيا، فتنهال على الأنبياء قصائد التبجيل والتأبين التي تشيد بالصفات التي خلعوها عليهم ونسبوها إليهم. وتبدأ عملية تأليه الإنسان، وتخليد الأموات، ورفع البشر إلى السماء، ولا يدركون أنهم وجميع أفراد المجتمع الذين يتبعونهم سوف يدفعون ثمنا باهظا لهذا التناقض الصارخ. فإن الحب الأعمى للأنبياء السابقين يصير هو الروح والجوهر للدين الذي استنسخوه لأنفسهم بعد أن دمروا جوهر وروح الدين الذي أتى به النبي الذي بُعث فيهم. إن الأنبياء يأتون دائما للقضاء على الإثم وتدمير الباطل، ولكن الحب المبالغ فيه الذي يضفيه الناس عليهم يُستغل لخلق الإثم والباطل. ويظنون بهذه الإطراءات والمبالغات عن الأنبياء السابقين أنهم يستطيعون أن يخلّصوا أنفسهم من الذنوب والآثام التي ارتكبوها، مع أن هذا التبجيل المبالغ فيه والإطراء الذي يتعدى الحدود لنبي من الأموات ينتهي بهم إلى حياة تكون أسوأ من الموت. وهم يزعمون أنهم في أمان مع الله ﷻ، رغم أنهم ينتهكون حرمة وحدانيته.. ما داموا يطأطئون رؤوسهم للآلهة البشرية التي أشركوها في صفاته ﷻ. وهذا يفتح أبواب الفساد الأخلاقي على مصراعيها، وإذا فُتحت مرة فلا يمكن أن تُغلق بواسطة الجهود البشرية وحدها، فإن ارتكاب الذنوب يتعاظم من طريق تأليه الأنبياء المعصومين من ارتكاب الذنوب.

ويقوم نفس الكهنة الفاسدين، بغير إحساس من خجل أو تأنيب من ضمير، بنشر الكراهية ضد من يختلف معهم، والتحريض على سفك

الدماء، وتشجيع أعمال الإرهاب، والقضاء على الحقوق الإنسانية الأساسية، وهم يفعلون كل هذا باسم حبهم لله تعالى. إنهم يخلقون فجوة كبيرة بين الخالق وخلقه، وهم بذلك يضمنون لأنفسهم مكانا للحكم في معزل عن الله ﷻ. فهم الذين يصدرون الفتاوى، ويصيغون قرارات ما أنزل الله بها من سلطان. وبذلك فهم في واقع الأمر ينازعون الله تبارك وتعالى حق الألوهية، ولكن بغير الاعتراف بذلك في كلمات مفصلة، حتى إن الله عز وعلا لا يعود مثار اهتمامهم، فكل ما يهتمون له هو أنفسهم وحسب. وعلى المجتمع أن يخشى سخطهم وأن يطلب رضاهم. ويصير المعيار للثواب والعقاب هو أن من يجرؤ على الاختلاف مع هؤلاء الآلهة المزيفة يكون جزاؤه منهم الحكم عليه بالخلود في جهنم وعذاب السعير، ومن يكيل بمكيالهم وينسج على منوالهم فله منهم جنات الخلود والحور العين، وكأن على الله أن ينفذ ما يقررونه هم وما يقضون به. وهم لا يهتمون كثيرا بالفساد الأخلاقي الذي يعم الناس، فاهتمامهم ينحصر في ذاتهم وسُلطاتهم التي يتحكمون بها في العامة. وعلى مذبح الأنانية وعقائدهم المتزمتة يُقتل الفكر والثقافة والعدالة والإنصاف واحترام الرأي الآخر. وهذا هو الثمن الذي لا بد أن يدفعه المجتمع دائما حينما تُنتهك حرمة وحدانية الله بشكل أو بآخر.

وكالحية السامة يرفعون رؤوسهم الحاقدة ضد أي تدخل إلهي، وبالطبع فإن كل التبجيل والتقديس الذي يصل إلى حد عبادة الأنبياء السابقين ليس في واقعه سوى خداع وتضليل، ونواياهم الحقيقية المتخفية وراء مظهرهم الكاذب هذا إنما تروم عبادة ذاتهم وأنانيتهم. وفي مثل هذا المجتمع الذي يبتعد عن الله تعالى.. يكثر وجود الآلهة المزيفة من أمثالهم، ولكن المعضلة هي أن هذا المجتمع لا تجمعه وحدة أبدا ما دام بعيدا عن وحدانية الله الأحد. ولذا تسوده الخصومات التافهة.. حتى في الطبقة الكهنوتية نفسها، فينقسمون إلى فرق جديدة ومذاهب وطوائف يباعد

بينها الاختلاف الفكري والعقائدي.

وهنا يبدأ بينهم تنافس محموم للهيمنة على الجماهير، وكل ما يهمهم في الأمر هو عدد الأتباع. أما أخلاق أولئك الأتباع فهي لا تهم، وليس للقادة من أي تأثير إيجابي على التصرفات الحياتية، وأعمال أتباعهم اليومية، ولا على القيام بمسؤولياتهم الأخلاقية تجاه المجتمع. وأما الفن الذي يبرعون فيه فهو كيف يثيرون حمية هؤلاء الأتباع ويلهبون مشاعرهم حتى ينفجروا في بركان من الغضب والكراهية ضد الطوائف والأحزاب المنافسة لهم، ولا يعرفون أبدا كيف يزرعون بذور المحبة والتضحية في تربة قلوبهم. ولا شك أن مجتمعا كهذا يوفر المناخ المناسب الذي تنمو فيه عبادة الأصنام. وإن اختلفت الأصنام فلم تعد أحجارا، وإنما صارت زعماء وقادة ورؤساء ومشايخ وكهنة الدين الذين لا يرضون بغير الرضوخ التام لسلطانهم وسلطانهم في كل ما يتعلق بالعقائد الدينية. أما الرضوخ لطاعة الله تعالى والانصياع لأوامره في شؤون الحياة التي يحيونها، فلا يكون في المقام الأول من الأهمية. فقد يرتكب الناس الموبقات والمعاصي من كذب وسرقة واختلاس وقتل واغتيال، وقد يجمعون الثروات الطائلة من دماء الشعوب، وقد يبنون القصور الفارهة من استغلال الجماهير المطحونة، بأساليب الكذب والغش والخداع والاحتيال. قد يفعل الناس ما يحلو لهم ما لم يُغيروا من ولائهم للقادة الدينين أو للزعماء السياسيين، ولا يخضعون للفرق المغايرة أو للأحزاب المنافسة، أما كل شيء آخر.. فهو على ما يرام ويكون مقبولا لديهم. وهكذا تتحول العبادة شيئا فشيئا من الله وحده إلى الأنبياء السابقين، ثم تتحول بعدها من الأنبياء إلى عبادة الذات، وهكذا يتحول القادة والزعماء الذين غمرهم الفساد إلى أشباه الآلهة.

أما حالة الجهّال من الجماهير التي تتبعهم فهي ليست أقل مدعاة للحزن والأسى، فكل ما يعرفونه هو أن الزعيم الديني قد حل محل الإله

وأن الإله عندهم قد صار هو الزعيم الديني. فيُفَوضون إليه أمر التفكير في أمور الدين، ولا يجرؤون على تحدي سلطاته ونفوذه عليهم في الأمور الدينية. وبذلك يحدث تغيير جذري في العبادة فتتحول إلى سادتهم وكبرائهم، متمثلة في الطاعة العمياء لكل ما يقولونه وما يأمرون به، بينما تظل عبادتهم لله تعالى عبادة شكلية، تتمثل في التمسك بالشكل والمظهر دون اللب والجوهر، إلى أن يستحيل عليهم التمييز بين المظهر والجوهر، وتصير إرادة كهنة الدين بالنسبة لهم هي إرادة الله. غير أنها تظل كذلك ما لم يتعد هؤلاء الكهنة الخط الأحمر الذي يمثل مصالح هؤلاء العامة. ففي اللحظة التي يجرؤ فيها الكاهن أو الزعيم الديني على فعل ذلك.. ينقلب الحال على الفور، فلا يلقى منهم أي احترام على الإطلاق، ولا تعود طاعته أمرا واجبا عليهم. فليس هناك من فرد في مثل هذا المجتمع اللاأخلاقي يعرف إلها غير نفسه ومصالحه. إن الاحترام والتبجيل الذي يضفيه عامة الناس على أشباه الآلهة من الكهنة يستمر ويدوم ما دام هؤلاء القادة لا يمسون مصالح من يقودونهم. وهكذا يتم التحَول الكامل من التوحيد إلى الشرك، وتصبح الأنانية وعبادة الذات هي السمة المميزة للمجتمع الديني الذي يعمه الفساد.

وفي جميع المجتمعات التي يعمها الفساد يثير الظهور المفاجئ لمبعوث من السماء إحساسا ثقيلا بالضيق والامتعاض، وهذا بالضبط كان هو الأسلوب الذي عومل به عيسى عليه السلام حين ظهر بين خراف بيت إسرائيل، ولكن أسلوبهم في التعامل معه جعل منهم ذئابا لا خرافا. ومع ذلك فإن تعامله معهم كان تعامل الراعي الصالح الذي يرعى ويحافظ على كل فرد في رعيته.

ويمكن للمرء أن يتصور بسهولة.. كيف تصيب العماية بصيرتهم وتحجبها إلى الأبد، فإن التعظيم المفرط المبالغ فيه لأعمال الأنبياء السابقين مما أدى إلى تأليههم.. يقف حجر عثرة كبرى أمام الأنبياء الذين يأتون

فيما بعد، والذين يظهرون دائما مثل بقية البشر. غير أن الصورة التي خلقها كهنة الدين في ذهن العامة من الناس عن الأنبياء وعن أعمالهم ومعجزاتهم، تكفي لكي يرفض الناس الأنبياء الذين لا يأتون في تلك الصورة الخيالية.. وهكذا تظل صعوبة التعرف على النبي الذي يبعثه الله تعالى إليهم الحائل المنيع الذي يسد أمامهم طريق الإيمان.

وبغير مجيء الأنبياء من لدن الله تعالى فإن الإيمان بالله يتحول ليكون نوعا من الإلحاد، إذ يتجلى كل شيء ويُشاهد في أعمال الناس وفي تعاملاتهم وفي حياتهم اليومية إلا الله تعالى، حتى إن الله تعالى نفسه يبدو وكأنه قد تخلى عنهم وهجرهم كما يهجر الطائر عشه فلا يعود إليه أبدا بعد ذلك.

وقد كانت هذه هي التحديات التي واجهها عيسى عليه السلام. فإن المجتمع اليهودي في زمنه كان يمر بأزمة روحية وأخلاقية مماثلة. وصار زعماء الفرق الدينية جميعا أربابا من دون الله، حتى لم يعد لله تعالى مكان في ذلك المجتمع. وهذه هي في الحقيقة المعجزة الكبرى للمسيح عليه السلام وغيره من الأنبياء أن الصوت الوحيد المتصاعد من قلب عيسى عليه السلام باسمه عز وجل لم يذهب سدى ولم يتلاش مع زمجرة أصواتهم ولم يضعف مع علو صخب رفضهم وضجيج تكفيرهم ودوي اعتراضاتهم. هذه باختصار الحكاية عن الكيفية التي تبدأ بها الأديان، وكيف تقوى وتعلو، ثم كيف في النهاية تضمحل ويصيبها الفساد فتترنح وتسقط. ولكن بعد كل سقوط وانتكاس.. تكون هناك بداية لحياة جديدة وصحوة قويمة لإحياء الإيمان بوحدانية الله تعالى مرة أخرى. وتأتي هذه الحياة الجديدة من لدن خالق الحياة نفسه، فهي تبدأ في السماء وتتنَزّل وحيا إلى الأرض على من يختاره سبحانه لإحياء دعوة التوحيد. ولم يحدث أبدا أن خرجت هذه الدعوة من الأرض كما تخرج الحمم من البراكين فتنشر الخراب والدمار، وإنما تتنَزّل وحدانية الله من السماء كما ينْزل الغيث على الأرض العطشى

فيرويها بماء الحياة، وإذا بالأرض تهتز وتربو وتنبت من أشجار صالحة تعطي ثمرا طيبا. إن جميع الدعوات التي لا تتنَزّل من السماء بل تخرج من الأرض، تكون مثل أعمدة الدخان التي تتصاعد وتعلو في السماء لبرهة، ولكنها سرعان ما تتبدد وتضيع وتتلاشى. إن الدعوة الصحيحة للتوحيد الحق تتنَزّل من السماء، لترفع الإنسان الذي سقط في حضيض الشرك والوثنية، وتصل به إلى الأعالي قربا من الله تبارك وتعالى.

*****